تحريات أثرية عن عصور ما قبل التاريخ في القلمون

الأب جوزيف نصر الله

يتشكل القلمون من سلسلة هضاب متدرجة في الارتفاع بين لبنان الشرقي والبادية . وتكوينه لا يسمح بوجود الأنهار انما توجد فيه الينابيع بكثرة ولذلك فان الانسان وجد فيه مكاناً ملائماً للسكنى منذ اقدم العصور . ففي عتبات سلسلة القلمون ومضائقها الوعرة وجبالها المتوجة بالحجر الكلسي وجدت مغاور طبيعية لجأ اليها الانسان في الدور الطبقي الرابع خاصة وقد كانت المنطقة مكسوة بالغابات .

ومعلوماتنا عن حضارة ما قبل التاريخ في القلمون معدومة قبل عام ١٩٣٠ . وكان الفضل في اكتشاف ثروة هذا العصر الاثرية لعالم ما قبل التاريخ وهو المستر رست Rust . فقد اهتم بمغاور هذه المنطقة بعد ان وجد محطة آشولية Acheuléen قرب المستشفى الدنمركي في النبك . وقد عثر على ثلاثة مراكز في يبرود وبدأ اعمال الحفر ودامت من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٣ وكتب مقالا عن نتيجة اعماله في مجلة ما قبل التاريخ الالمانية (المجلد ٢٤ عام ١٩٣٣) . وقد اكتشف هذا العالم وجود أساليب جديدة لصنع الادوات الحجرية وسماها « بالاسلوب اليبرودي » .

ولكن هذا العالم لم يتم عمله . واتصل بنا أن القومندان بريفو Prévost قد قام بابحاث في منطقة معلولا كما ان المسيو بيرفس Pervès ذكر بعض صناعات من العصر الحجري القديم في منطقة ضمير ونشرت اخبار هذه الابحاث في نشرة جمعية ما قبل التاريخ الفرنسية في ١٩٣٧ م (١٩)

و ١٩٤٥ . واثناء اقامتنا في يبرود بين ١٩٣٤ و ١٩٤٠ وخاصة اثناء مهمة كلفتنا بها مديرية الآثار السورية لوضع لائحة بالاماكن الاثرية في القلمون في ١٩٤٥ لم نهمل الاهتمام بانسان الكهوف فحصرنا اهتمامنا بمنطقة صغيرة لتكون الابحاث تامة فوجدنا مراكز ومغاور متعددة .

وسوف نبحث الآن عن البقايا الأثرية في منطقة يبرود فقط ونترك لفرصة اخرى دراسة البقايا الصخرية الكبرى Megaliths ودراسة حضارة واسعة في القلمون تعرف بحضارة طرق الحجارة .

تتصل هضبة القلمون الثانية التي توجد فيها يبرود وبساتينها بالهضبة العليا بوديان ثلاثة ، اولها وادي قرينا في الجنوب ، ووادي سكفتا في الوسط ، ووادي مشكونة في الشمال . ففي وادي سكفتا حيث الاراضي اللاحقية يجتمع ممران ، الواحد في الشمال الغربي ضيق والثاني في الجنوب الغربي واسع . ففي هذا الوادي نقب المستر « رست » وقال انه من اشهر وديان الشرق في عصر ما قبل التاريخ . وقد نقب في ملجأين حفرا في مرتفع صخري يشرف على الوادي من جهة الشمال ، وكذلك في ملجأ ثالث في المرتفع الصخري الاوسط . ولم نقتصر على الحفر في هذه الاماكن وانما جمعنا بطريقنا ما وجدناه من البقايا المبعثرة على المنحدرات وهي تتراوح بين العصر الموستيري (في العصر الحجري القديم) والعصر الحجري النحاسي ، انما اكثر البقايا وجدناها من القسم الاول في العصر الحجري القديم . وقد وجدنا قطعة من سهم قرب صخرة تعرف باسم « المنقورة » وفأساً صغيراً من النوع الطاحوني (من العصر الحجري الحديث) . وتابعنا الممر الجنوبي الغربي في وادي سكفتا فعثرنا على بعض البقايا وبينها ثلاثة فؤوس يدوية ونصال حجرية وهي تتراوح بين عصر شيليان Chelléen وموستيريان Moustérien (وكلاهما في العصر الحجري القديم) .

ويتسع وادي سكفتا بعد نحو مائة متر ويتدرج في الارتفاع حتى يصل الهضبة العليا . وقبل أن ينتهي يتفرع عنه واديان صغيران يتجه الواحد نحو الجنوب الغربي ويسمى عين المغارة والثاني نحو الشمال والشمال الغربي ويسمى « عين فلـّيطة » . وعلى بعد عشرين متراً من هذا المكان الاخير موقع من العصر الحجري وهو على جانبي الطريق المؤدية الى فليطة . والادوات في هذا الموقع هي قطع صخرية مروسة ومكاشط صغيرة ونصال احداها بشكل منشار وسلسلة من المحافر بعضها كروية واخرى مستطيلة وبعضها بشكل الحرف D وهي تشبه قطع القسم الاول من العصر الحجري القديم . والمثاقب ايضاً متنوعة . وهنالك تلة تشرف على وادي المغارة وعين فليطة وتسمى « تل عين فليطة » وجدنا فيها نحو خمسين قطعة بعضها منحوت في صوان اصفر منقط بالاسود لم نجده في مكان آخر من القلمون . والادوات ترجع بوضوح

هنا الى القسم الاول من العصر الحجري القديم الذي نجد مثله في فلسطين ، وتحتوي على نصال ومحافر ومثاقب ورؤوس موستيرية . وعلى بعد بضع مئات الامتار شمالي عين فليطة وعلى الطريق المؤدية الى فليطة موقع اثري آخر وجدت فيه ادوات متنوعة . كذلك وجدنا في وادي فليطة — وطوله ثلاث كيلومترات وعرضه خمسمائة متر — عدداً من المواقع الاثرية من عصر ما قبل التاريخ ، والادوات هنا من نفس النوع الذي في عين فليطة انما الصناعة متطورة اكثر . وهنالك محافر مختلفة الاشكال بعضها يمكن استخدامه كمثاقب . وهنالك نصال سميكة بوجه الاجمال وبعضها يمكن اعتباره كمنشار . وهنالك ايضاً ادوات مروسة بشكل مثلث ومنحوتة على الجوانب .

اما الوادي الآخر الصغير المعروف بعين المغارة فانه ينتهي بشكل حوض حيث نبع عين المغارة . وفي اسفل هذا الحوض يوجد موقع اثري . وهنا تصنع الادوات بالطرق كما في سائر الاماكن وهى منحوتة على جانب واحد . واهم الادوات هنا هى المحافر المتنوعة . والنصال تختلف في حجومها واشكالها . وقبل الوصول الى يبرود وعلى يسار الطريق يمتد سهل محاط بكروم من الجنوب ويدعى هذا السهل « بسيل البلاط » ويحوي ادوات كثيرة من عصر ما قبل التاريخ وخاصة المحافر المتنوعة والنصال بشكل سكين يبلغ طول اكبرها عشر سنتيمترات وعرضها أربع سنتيمترات ، والمثاقب وغيرها . والادوات هنا من القسم الثاني من العصر الحجري القديم (Paléolithique inférieur) .

اما « وادي قرينا » فانه اطول من وادي سكفتا ويتسع بشكل مروحة فيشكل سهل يبرود . وقد وجدت كهوف في جوانب هذا السهل بعضها على بعد عشرين متراً من البحيرة ، وقد وجدت فيها بقايا من العصر الحجري القديم . كذلك في موقع « مغارة العبدة » في هذا الوادي عاش الانسان في ملجأ تحت الصخر وكانت ادواته حجرية صغيرة (Microliths) معظمها نصال بشكل سكين طولها يبلغ نحو اربع سنتيمترات ونصف . وبعض هذه النصال نموذجية (لوح ٢ شكل ١١) حيث النصلة دقيقة ومحددة من احد طرفيها . وهنالك محافر مختلفة الاشكال وأدوات مروسة منها دقيقة ضيقة ومروسة من الطرفين (لوح ٢ رقم ٨) ومنها اصغر وطرفها الواحد غير مروس ويسهل مسكه (لوح ٢ رقم ٩) . وهنالك نصال ومثاقب وقطع مختلفة منها بشكل هلال (لوح ٢ رقم ١٣) مثل تلك التي وجدت في الدور النطوفي الثاني والثالث في فلسطين . ووجدت كذلك رؤوس سهام كالتي وجدت في فلسطين بين الدور النطوفي الثالث والرابع . ولذا فان ادوات هذا الموقع — اي مغارة العبدة —

هي من نماذج العصر الحجري المتوسط وهي تقابل الدور النطوفي الثالث والرابع في فلسطين .

ومن المراكز الأثرية في وادي قرينا موقع يسمى « الباطن » في المنحدر الشمالي للوادي حيث يتجه الجبل شمالا نحو سكفتا . وقد وجدنا في هذا الموقع نحو ثلاثين قطعة حجرية متنوعة واهمها فأس يدوية طولها سبع سنتمترات ، ونصلة طولها احد عشر سنتمتراً وجميعها غالباً من العصر الموستيري . وفي المنحدر الجنوبي للوادي موقع « الفقرا » ويمتد على ٤٠٠ م من نهاية يبرود على يسار الطريق المعبدة المؤدية الى قرينا . ويصعب تحديد عصر هذا الموقع لان البقايا الموجودة فيه تحوي نماذج مختلفة بينها محافر ونصال دقيقة وقطعة من الصوان بشكل مروحة منحوتة بدقة على اطرافها (لوح ٣ رقم ٩) وتشبه المكاشط بشكل المروحة من بدء العصر الغسولي في فلسطين (اي العصر الحجري النحاسي) . وهنالك اداة فيها ما يشبه المنجل مجذعة ومشجوذة على طرفيها ، والقسم القاطع فيها كثيف لوح ٣ رقم ٣) ويمكن نسبة هذه الادوات الى العصر الحجري النحاسي (Enéolithique) طالما ان العنصر السائد فيها هو النوع الغسولي (نسبة الى تليلات غسول في شرقي البحر الميت) . ويوجد موقع آخر اسمه عين منعم يبعد كيلو متراً عن الموقع السابق الى جهة الشرق ويمتد على السطوح العليا لنبع صغير يسمى عين منعم . ونشاهد فيه نصالا بسيطة وحافرات مستديرة وادوات مروسة ومكاشط بشكل مروحة . ونلفت النظر الى اداة مروسة (لوح ٣ رقم ١١) طولها ٥ سم وقد نحتت اطرافها بخطوط افقية . وكذلك توجد قطعة ذات شكل خاص (لوح ٣ رقم ١٢) لها قاعدة شبه كروية يمتد منها قسم مروس ضخم ، وهي اضخم من ان تستعمل كمثقب ونرى فيها شبهاً بقطع من العصر الحجري الحديث في مريمدة بني سلامة في مصر . وقد اعتبر العالم الالماني هرمان يونكر الذي حفر في هذا الموقع ان هذه القطعة ربما كانت مثقباً غليظاً او ربما مطرقة لفتح العظام .

وقد اكتشفنا مركزاً آخر لانسان ما قبل التاريخ في مكان يسمى « ضهر النجاسة » وهو على طريق يبرود — معلولا حيث ينعطف الطريق امام رأس العين باتجاه بخعا . وفي هذا المركز تنوع في المحافر فمنها نصف اسطوانية ومنها مستطيلة ومنها خاصة محافر ذات نصال (لوح ٣ رقم ٤ ، ٧) . وهنالك مثاقب وسكاكين صغيرة من النوع الغسولي العادي وشيء يشبه المنجل (لوح ٣ رقم ٦) وجدنا له شبيها في مراكز في فلسطين لم تنشر محتوياتها بعد وهي شعب ابو فرضة ، وراس ابو حلاوة ، وتتصل بالنموذج الغسولي . والادوات في مركز ضهر النجاسة من العصر الحجري الحديث (النيوليتيكي) ومن النوع القريب من العصر الغسولي .

وأخيراً نذكر الوادي الثالث في منطقة يبرود اي وادي مشكونة وهو الابعد الى الشمال وتتصل به هضبة يبرود بالهضبة العليا . ومنحدر هذا الوادي قليل الانحراف وتمتد فيه الكروم على جوانبه . وقد عثرنا على كهف في هذا الوادي فيه بعض ادوات من العصر الباليوليتيكي الاول (القسم الاول من العصر الحجري القديم) ويقابل الاورغناسي الافرنسي . وكذلك وجدنا مركزاً آخر في ملجأ تحت الصخر فيه ادوات حجرية صغيرة . وعندما عبرنا الهضبة بين أول وادي مشكونة وبين دير المايدة الواقع الى الشمال وجدنا ادوات اخرى من نصال ومثاقب وقطع مروسة مثلثة الشكل . وتمكنا ان نستخرج من بين حجارة جدران دير المايدة قطعة مروسة موستيرية طولها ٧ س م .

وفي وادي فليطة عثرنا على مواقع اخرى في ملاجىء صخرية ووجدنا فيها نحو خمسين قطعة متنوعة من اواخر العصر الحجري القديم وبدء العصر الحجري المتوسط وفيها تأثير العصر القافصي (Capsien) .

ويستنتج من هذه التحريات التي اجريناها ان عدد المراكز التي عاش فيها انسان العصر الحجرى في هذه المنطقة كثيرة وغنية . ففي منطقة يكاد لا يتجاوز اتساعها ست كيلومترات عثرنا على نحو عشرين مركزاً وكذلك وجدنا مثلها تقريباً في ضواحي النبك وقاره . ولقد كنا ذكرنا في عام ١٩٣٨ بان بلاد كنعان تتلاقى فيها مراكز انسان ما قبل التاريخ وتكثر ، واليوم نذكر الشيء نفسه فيما يتعلق بالقلمون . ويكفي ان يقوم الانسان باجراء بعض التحريات حتى يجد بقايا أول سكان هذه البلاد . فالقلمون كان مأهولا بكثافة منذ اقدم عصور تاريخ البشرية وقد لا نكون مغالين اذا قلنا انه كان مأهولا اكثر منه اليوم .

ومعظم هذه الموجودات الحجرية تابعة للعصر الحجري القديم حين كان يصنع الانسان ادواته بالطرق . والانسان الابتدائي لم يخش ان يؤسس مسكنه واكواخه المصنوعة من الاغصان او من جلود الحيوانات على هضبة القلمون العليا ، والبرد لم يكن شديداً بعد . والاقليم كان شبه مداري حتى نهاية العصر الموستيري ، وكانت الحرارة والرطوبة تزداد احياناً حتى يصبح الاقليم مدارياً تاماً .

ومن ناحية شكل هذه البقايا فاننا لاحظنا كثرة المحافر باشكال وحجوم مختلفة . وهذه القطع لا تختلف عن سائر الادوات التي نصادفها في فلسطين من هذا العصر . ويعتبر المستر رست Rust ان هذه القطع هي ادوات نموذجية لنوع جديد من الصناعة يسميها « اليبرودية » . وقد يبدو لنا ان فوفري Vaufray أخطأ حين اعتبرها من احسن انواع النماذج القليلة التي

ورد ذكرها في اخبار الحفريات . على اننا نعطي نفس الحكم بعد ان اطلعنا على قطع كثيرة . والذى نقره بوضوح هو ان هذه الصناعة اليبرودية ليست الا شكلاً من أشكال الصناعة الموستيرية وخاصة مايسمونه في فرنسا بالموستيرية الثانية وهي لا تختلف عن ما يعرف بنموذج ليفالوا Levalloisien . فهي صناعة بلاد حارة او معتدلة كالتي صادفها كومون Commont في مونتيير خاصة . وعلى كل فان « رست » في نهاية دراسته يقارن ما يسميه باليبرودي بالموستيري الحار في موقعي مونتيير وايهرنكسدورف Ehringsdorf .

تلخيص وتعريب الحوليات الأثرية